الفصل الخامس

رسالة من أفريقيا

كان ذاك الشتاء باردًا بالفعل. اجتمعت الحيوانات في إحدى ليالي ديسمبر/كانون الأول حول نار المدفأة، وقرأ لها الدكتور دوليتل قصصًا ترجمها إلى لغة الحيوانات لتستمتع هي أيضًا بها، لكن فجأة طارت البومة تو تو هابطة من عوارض سقف المنزل الخشبية.

قالت: «صه! ما هذا الضجيج بالخارج؟»

فأنصت الجميع. كانت تو تو محقة: فقد تنامى صوت ضوضاء غريبة من خارج المنزل. كان هذا صوت شيء يركض، ثم انفتح باب المنزل فجأة ودخل تشي تشي راكضًا وهو يلهث.

صاح قائلًا: «حضرة الطبيب. بلغتني للتو رسالة من ابن عمي في أفريقيا. لقد أصاب القرود هناك مرض مريع. جميعهم سمعوا بك، وهم يتوسلون إليك أن تأتي لمساعدتهم.»

فسأل الطبيب: «من جاء بهذا الخبر؟» إذ دهش من وصول رسالة من مكان بعيد جدًّا كهذا.

فأجابه تشي تشي: «أتت به عصفورة من عصافير الجنة. إنها ما تزال بالخارج بالقرب من سور الحديقة.»

فصاح الدكتور دوليتل: «أدخلها. الجو بالخارج شديد البرودة على عصفورة صغيرة، لا سيمًا أنها من أفريقيا، بإمكانها أن تتدفأ بالقرب من المدفأة.»

دخلت عصفورة الجنة. كانت تشعر بالبرد والتوتر في البداية، لكن لم يمض وقت طويل قبل أن تشعر بالدفء بالقرب من المدفأة، وأخبرت الجميع بشأن المرض الذي أصاب القردة في أفريقيا. كان مرضًا خطيرًا، لذا احتاجت القردة إلى الدكتور دوليتل على الفور.

من ثم قال الدكتور دوليتل: «بالطبع، بالطبع. سأغادر في أقرب وقت ممكن، غير أنني أخشى أننا لا نملك مالًا كافيًا لشراء تذاكر السفر. تشي تشي! هلا أعطيتني الحصالة؟»

تسلق القرد تشي تشي أرفف المكتبة وأخذ الحصالة من الرف العلوي لها، لكنها لم تحو أي مال؛ لم تحو بنسًا واحدًا!

فصاح الطبيب: «ليس بها أي مال! أنا متأكد من أنه تبقى لدينا على الأقل القليل منه.»

فسألت تو تو: «ألا تذكر أننا اضطررنا إلى شراء طوق جديد لجيب؟»

فأجاب الدكتور دوليتل: «آه، نسيت هذا. أعتقد أنني سأضطر إلى الذهاب إلى الشاطئ لأستعير قاربًا. آمل أن أجد صيادًا باللطف الكافي لإعارتي واحدًا.»

من ثم اتجه الدكتور دوليتل صباح اليوم التالي إلى الشاطئ وعثر على صياد اتفق معه على إعارته قاربًا ليقله إلى أفريقيا. كان الصياد يعلم أن الدكتور دوليتل لن يستطيع دفع المال له.

قال له: «لا بأس أيها الطبيب. لقد ساعدت ابني قبل وقت طويل، وأعلم أنك تعنى بكل هذه الحيوانات، ويسرني أن تتاح لي أخيرًا فرصة لمساعدتك.»

وعد الدكتور دوليتل بأن يعيد القارب في أقرب وقت ممكن، ثم عاد مسرعًا إلى منزله ليطلع الحيوانات على هذا النبأ السار.

فرحت الحيوانات فرحًا شديدًا، وتحمس التمساح، وتشي تشي، وبولينيزيا للعودة إلى أفريقيا؛ فهم في المقام الأول قد ولدوا فيها، ولم يعودوا إليها منذ سنوات عديدة.

قال الدكتور دوليتل مخاطبًا التمساح وتشي تشي وبولينيزيا: «لن أستطيع أن أصطحب معي إلا ثلاثتكم، وجيب، وداب داب، وجاب جاب بالطبع. سيضطر الآخرون إلى البقاء هنا. أفريقيا لن تكون مكانًا جيدًا للكثير منهم.»

ومن حسن الحظ أن بولينيزيا سافرت في الكثير من الرحلات البحرية، وأخبرت الطبيب بكل ما سيحتاجه في الرحلة.

قالت بولينيزيا: «سيتعين علينا أن نجلب معنا أنواعًا خاصة من الطعام. ثمة خبز يدعى بسكويت البحر، يدوم وقتًا طويلًا. وسنحتاج أيضًا إلى إحضار علب فول وخضروات محفوظة، ففي الرحلات الطويلة ثمة احتمال دائمًا لأن يفسد الطعام.»

قال الطبيب: «أجل، أجل، بالطبع.» ودون كل ما أخبرته به بولينيزيا في مفكرته الصغيرة، ثم أردف قائلًا: «أظن أن القارب ستكون معه مرساته الخاصة.»

فقالت بولينيزيا: «أجل. ستكون معه مرساة خاصة به، لكن علينا أن نحرص على أن يكون معنا الكثير من الحبال، فهي مفيدة جدًّا في الرحلات البحرية الطويلة.»

لكن ظلت مشكلة المال قائمة. كيف سيشترون كل ما سيحتاجون إليه في رحلتهم إن كانت حصالة النقود خاوية؟

لك أن تتخيل دهشة الدكتور دوليتل عندما جاء الجزار إلى منزله بكل المؤن التي يحتاجها!

قال الجزار: «كنت أعلم أنك ستحتاج إلى تلك الأغراض من أجل رحلتك. أرجوك لا تشغل بالك بشأن سداد ثمن هذه الأشياء الآن. تحادثنا أنا والبقال في الأمر. أنت تؤدي عملًا مهمًّا. سنتناول أمر النقود عندما تعود من أفريقيا.»

صافح الدكتور دوليتل يد صديقه الجزار قائلًا: «عجبًا. أنت شديد الإحسان إلينا. كيف يسعني شكرك؟»

فقال الجزار: «لا داعي لهذا. تسرني مساعدتك.»

سارع الطبيب والحيوانات بحزم جميع أغراضهم، وأغلقوا مصدر المياه حتى لا تتجمد في الأنابيب أثناء غيابهم، ووضعوا مصاريع على النوافذ وأعطوا مفتاح الإسطبل للحصان. وما إن تيقنوا من أن هناك ما يكفي من الطعام والتبن لجميع الحيوانات التي ظلت في المنزل حتى اتجهوا إلى الشاطئ.

كان الجزار والصياد والبقال هناك لوداعهم وساعدوا الدكتور دوليتل والحيوانات في حمل مؤنهم إلى القارب.

لكن قبل أن يبحروا انتبه الدكتور دوليتل إلى أنه لا يعرف الطريق إلى أفريقيا، فطلب من الصياد أن يرسم له خريطة.

قالت عصفورة الجنة: «لا تقلق أيها الطبيب. أنا أعرف الطريق! بإمكانك أن تتبعني طوال الطريق إلى أفريقيا.»

ودع الدكتور دوليتل أصدقاءه اللطفاء ورفعوا مرساة القارب ونشروا الشراع وبدأت رحلتهم!

الفصل السادس

الرحلة الطويلة

أبحر الطبيب والحيوانات ستة أسابيع، ومع أن تلك الفترة قد تبدو طويلة، إلا أن الرحلة حقيقة كانت قصيرة؛ إذ لم يهدر الطبيب والحيوانات وقتًا؛ فتتبعوا عصفورة الجنة طوال النهار وهي تطير أمام القارب، وحملت العصفورة ليلًا مصباحًا صغيرًا لئلا يضلوا الطريق.

أصبح الجو أكثر دفئًا مع إبحارهم جنوبًا. كانت بولينيزيا، وتشي تشي، والتمساح في غاية السعادة؛ فركضوا في أرجاء القارب يضحكون، وأطلوا من جانبه آملين أن يكونوا أول من يبصر أفريقيا؛ كانوا سيبلغون موطنهم الأصلي في وقت قصير!

أما الخنزير والكلب والبومة، فلم يشعروا بالسعادة نفسها تجاه الطقس. كان احتمال الحرارة لديهم أشق كثيرًا، فلم يسعهم إلا الجلوس في الظل وألسنتهم تتدلى من أفواههم ورشف الليمونادة.

حافظت البطة داب داب على برودة جسدها بالسباحة في المحيط خلف القارب، وغاصت أحيانًا تحت الماء، وسبحت تحت القارب، وأمسكت بالكثير من الأسماك، وفرح الجميع بتناول السمك على العشاء. كان هذا بمثابة تغيير لطيف لعلب الفول والخضراوات المحفوظة.

سبحت مجموعة من الدلافين في أحد الأيام بجانب القارب، فجلست بولينيزيا على حافته لتحدثهم. سألت الدلافين إن كان هذا هو قارب الدكتور دوليتل، فأجابت بولينيزيا بنعم.

قالت الدلافين: «نحن سعداء جدًّا بسماع هذا. ستُسر القردة بذلك، فقد كانوا يشعرون بالقلق.»

قالت بولينيزيا: «سنبلغهم في وقت قصير. تقول عصفورة الجنة إننا سنصل في غضون أيام قليلة.»

سألت الدلافين: «هل تمانعون أن نسبح بجواركم بعض الوقت. سيشرفنا السفر مع الدكتور دوليتل.»

فقالت بولينيزيا: «يمكنكم هذا بالطبع.» وشعرت بالفخر فهي في المقام الأول من علم الدكتور دوليتل أن يتحدث لغة الحيوانات، وها قد سمعت جميع الحيوانات به.

بعد يومين، مع مغرب الشمس، أمسك الدكتور دوليتل منظاره ثم صاح: «تعالوا جميعًا وانظروا! أوشكت رحلتنا على الانتهاء؛ بإمكاني أن أرى سواحل أفريقيا!»

هرعت جميع الحيوانات إلى جانبه، وتناوبوا النظر عبر المنظار، وهللوا فرحًا باقترابهم من غايتهم.

سأل الكلب جيب: «كم تبقى من الوقت لنبلغ الشاطئ؟»

فقال الدكتور دوليتل: «أتوقع أن نصل إلى هناك بحلول الصباح، أظن هذا.»

لكن في اللحظة نفسها أظلمت السماء واشتدت الريح، فهرع الجميع إلى كابينة القارب لئلا يبتلوا خلال العاصفة. دوى الرعد وسطع البرق، وأخذ المطر يهطل وارتفعت الأمواج حتى إن المياه تدفقت على سطح القارب.

خلد الجميع إلى النوم آملين أن تنتهي العاصفة قبل حلول الصباح، لكن في منتصف الليل دوى صوت ارتطام وتوقف القارب وبدأ ينقلب على جانبه.

صاح الطبيب: «ماذا حدث بحق السماء؟» وفتح باب الكابينة وتسلق صاعدًا سطح القارب، وتعذر عليه السير وسط الرياح والمطر.

قالت بولينيزيا: «أعتقد أن قاربنا تحطم.»

قال الطبيب: «لا بد أننا اصطدمنا بصخور أفريقيا. يا إلهي! آمل ألا نكون قد حطمنا القارب.»

قالت البطة داب داب: «سأفحصه.» وغاصت بجانب القارب وسبحت تحت الماء لفحص قاعه. كان هناك خرق كبير به من أثر الاصطدام بالصخور، وقد تدفق الماء إلى داخله وأخذ يغوص بهم بسرعة، فأسرعت داب داب عائدة إلى سطح القارب وأبلغتهم بذلك.

بدأت بعض الحيوانات تفزع. لم يُخف الأمر التمساح وجيب، إذ يستطيعا السباحة، وتستطيع بولينيزيا وعصفورة الجنة والبطة داب داب والبومة تو تو الطيران، أما القرد تشي تشي والخنزير جاب جاب فلا يستطيعان السباحة أو الطيران.

من ثم صاحت بولينيزيا: «ائتوا بالحبل. قلت لكم إنه سينفعنا. نحتاج إلى مساعدتك من جديد يا داب داب. خذي طرف هذا الحبل وطيري إلى اليابسة واربطيه حول شجرة.»

فعلت داب داب ما طلب منها. كانت الرياح عاتية، لكنها لم تضل طريقها، وعقدت الحبل بإحكام حول شجرة وعقد الدكتور دوليتل الطرف الآخر منه حول حافة القارب.

ثم قالت بولينيزيا: «ليتسلق الحبل الآن كل من لا يستطيع السباحة أو الطيران، بذا سنصل إلى الشاطئ.» وبهذه الكيفية بالضبط بلغت جميع الحيوانات الشاطئ بأمان.

وضع الطبيب صندوق أغراضه وبعض المعدات الطبية في سلة علقها بالحبل ودفعها ليرسلها إلى الشاطئ، ثم تبعها على الفور.

لكن القارب لم يكن بحال جيدة؛ فقد كان الخرق في قاعه كبيرًا، وكانت الأمواج شديدة الارتفاع. اصطدم القارب بالصخور وبدأ يتحطم وألواحه تتساقط عنه واحدًا تلو الآخر. كره الدكتور دوليتل أن يتركه، لكن لم يسعه فعل شيء حيال ذلك، فقال: «سأضطر إلى العثور على طريقة أخرى أسدد بها ديني للصياد.»

أوى الجميع إلى كهف حتى توقف المطر. كان الكهف مريحًا وجافًا مع أنهم كانوا جميعًا مبتلين من أثر العاصفة. وعندما استيقظوا صباحًا كانت الشمس مشرقة، فعادوا إلى الشاطئ الرملي ليجفوا.

قالت بولينيزيا: «آه، أفريقيا الجميلة العتيقة. أتعلمون أنني لم آت إلى هنا منذ أكثر من مائة عام، لكن المكان لم يختلف فيه شيء؛ إنها الشواطئ نفسها، والنخل نفسه. آه، كم العودة إلى الوطن رائعة!»

لاحظ الدكتور دوليتل والحيوانات الأخرى أن عينا بولينيزيا تدمعان. كانت فرحة إلى هذا الحد برؤية موطنها الأصلي من جديد.

هنا صاح الدكتور دوليتل: «آه، لا.» فالتفتت الحيوانات لتنظر إليه؛ وتساءلوا جميعًا ما الأمر.

قال الدكتور دوليتل: «أضعت قبعتي! يبدو أن الريح قد عصفت بها. هذا مؤسف جدًّا؛ فقد أحببت هذه القبعة جدًّا.»

فقالت البطة داب داب إنها ستذهب للبحث عنها، وطارت عائدة فوق المحيط وفي غضون بضع دقائق، وجدت قبعته العالية تطفو على الماء، فهبطت لالتقاطها، لكنها عندئذ لاحظت أن أحد الفئران البيضاء يركب بداخلها.

فسألته: «ما الذي تفعله هنا؟ لقد طلب منك الطبيب أن تمكث في بودلبي.»

فأجاب الفأر: «لكن لدي أقارب في أفريقيا، بالإضافة إلى أن الذهاب في رحلة بحرية استهواني، فاختبأت وسط بعض المتاع وأتيت معكم، وقد حالفني الحظ إلى حد بعيد، إذ طرت أنا والقبعة عن السفينة في آن واحد، فأمسكت بها ومنذ ذلك الحين وأنا أركب بها.»

التقطت داب داب القبعة وبداخلها الفأر وحملتهما عائدة إلى الشاطئ، فاحتشد الجميع حولها لإلقاء نظرة على القبعة.

أجمعوا على أن الفأر لا يستطيع السير في الأدغال بمفرده، فحاولوا أن يجدوا له مكانًا في صندوق أغراض الدكتور دوليتل يستطيع التنقل فيه بارتياح، لكنهم عندئذ سمعوا صوت شيء يشق طريقه بين الأشجار، فكفوا عن الحركة ليرهفوا السمع.

خرج رجل من وسط الأدغال وتأملهم، ثم سألهم عما يفعلونه في هذا المكان.

أجابه الطبيب: «اسمي الدكتور دوليتل، وقد طُلب مني المجيء إلى أفريقيا لمساعدة القردة هنا، فقد أصابها مرض شديد كما تعلم.»

قال الرجل: «عليك أولًا أن تتكلم مع الملك.»

ولما كان الدكتور دوليتل يريد أن يصل إلى القرود على الفور، سأل: «أي ملك؟ أخشى أننا ليس لدينا الوقت لهذا.»

قال الرجل: «كل هذه الأرض خاضعة للملك، والغرباء يجب أن يمثلوا أمامه. اتبعني.»

أدرك الدكتور دوليتل أنه لا جدوى من الجدال، فجمع هو والحيوانات متاعهم وتبعوا الرجل بين الأدغال، وتوقفوا عندما بلغوا ساحة مفتوحة خاوية من الأشجار يقع في أحد أطرافها بناء. كان هذا في الواقع قصر الملك، إلا أنه لم يكن كبيرًا، بل كان في الواقع صغيرًا، لكن بناءه حسن وقوي، يقي من المطر عند هطوله، والمناخ بداخله بارد عند الحر. بعبارة أخرى، كان مثاليًا لسكن الملك والملكة والأمير.

جلس الملك والملكة أمام القصر تحت شمسية كبيرة، الملك يقرأ بعض الأوراق الهامة، فيما نامت الملكة نومًا عميقًا على كرسيها، فلما دنا الدكتور دوليتل والحيوانات، رفع الملك بصره.

وسأل: «ومن أنت؟» لم تبد عليه السعادة بقدوم زوار.

فقال الدكتور دوليتل: «لقد أتينا من أجل القرود.» ثم قص عليه ما حدث ليلة الشتاء الباردة وحكى له عن عصفورة الجنة، وعن الصياد الطيب الذي أقرضه القارب، وعن العاصفة واصطدام القارب بالصخور وغرقه.

قال الملك: «كل هذا مثير جدًّا للاهتمام.» — مع أنه لم يبد عليه الاهتمام على الإطلاق — وأردف قائلًا: «لكنك لا تستطيع المرور عبر أرضي. لقد سمحت لرجل مثلك أن ينتفع بها ذات مرة، وكنت جم اللطف معه في الواقع، لكنه بعدئذ رحل تاركًا حفرًا فيها بعد أن حفرها بحثًا عن الذهب، واختفى في منتصف الليل دون أن يشكرني، فأقسمت ألا أسمح لزائر آخر بأن يستغلني.»

فقال الدكتور دوليتل: «لكننا لا ننوي شرًّا. نود مساعدة القردة المريضة وحسب.»

لكن الملك لم يصغ إليه، وأشار إلى حراسه.

قال: «خذوا هذا الرجل وحيواناته، وزُجوا بهم في السجن. أريدهم أن يغربوا عن وجهي.»

قاد الحراس الطبيب وحيواناته وزجوا بهم في زنزانة حجرية، كانت غرفة صغيرة ذات جدران عالية، بابها قوي سميك وليس بها إلا نافذة واحدة مرتفعة.

الجميع شعروا بالإحباط، إذ لم يتوقع أحد هذا. وأخذ جاب جاب المسكين يبكي، فغضب تشي تشي وأخبره أن يكف عن البكاء.

قال الدكتور دوليتل: «لن يفيدنا التعارك. علينا أن نفكر بوضوح فيما علينا فعله.»

عندئذ لاحظ الدكتور دوليتل أن بولينيزيا ليست معهم، فناداها، لكنه لم يجد جوابًا.

فقال: «لا أظن أنني رأيتها منذ أن كنا نتحدث مع الملك. آه، آمل أن تكون بخير.»

تمتم التمساح في غضب قائلًا: «الأرجح أنها رحلت، وهذا هو المتوقع تمامًا منها! إنها على الأرجح مع أصدقائها القدماء الآن، فقد كانت متحمسة جدًّا لعودتها لأفريقيا. هذا هو كل ما تحدثت عنه، وها قد تركتنا محتجزين هنا.»

قالت بولينيزيا وهي تتسلق خارجة من جيب الدكتور دوليتل: «لست أنا هذا الطائر.»

صاح الدكتور دوليتل قائلًا: «بولينيزيا! كم أنا سعيد برؤيتك.»

قالت هي: «لك أن تسعد، فحجمي صغير بما يكفي للمرور عبر هذه النافذة الصغيرة. لقد خشيت أن يضعوني في قفص، فاختبأت في جيبك.»

قال الطبيب: «يا إلهي. من حسن حظك أنني لم أجلس عليك!»

قالت بولينيزيا: «أصغوا إلي الآن. لدي خطة، وقفزت على مقعد طويل لترى سائر الحيوانات والدكتور دوليتل بوضوح.»

ثم قالت: «الليلة بحلول الظلام، سأتسلل خارجة من النافذة وأطير عائدة إلى القصر، ثم سأجد طريقة لإقناع الملك بأن يسمح لنا بالمرور عبر أرضه.»

سأل جاب جاب الخنزير: «وكيف ستفعلين ذلك؟ لستِ سوى طائر.»

قالت بولينيزيا: «هذا صحيح، لكن عليك أن تتذكر أنني أستطيع أن أتحدث لغة البشر، وأنا واثقة من أنني سأهتدي إلى خطة ذكية.»

من ثم طارت بولينيزيا مساءً والقمر يرسل ضوءه إلى النافذة الصغيرة المرتفعة، وتسللت خارجة منها بسهولة، ثم طارت إلى قصر الملك. كان زجاج إحدى نوافذ القصر محطمًا، فتسلقت بولينيزيا النافذة ودخلت عبر الفتحة الموجودة بالزجاج.

تجولت خلسة في أرجاء القصر إلى أن عثرت على حجرة نوم الملك، ففتحت بابها بهدوء واختلست النظر داخلها. كانت الملكة في حفل راقص، فيما كان الملك على فراشه، يغط في نومه العميق.

انتقلت بولينيزيا بسرعة إلى الجانب الآخر من الغرفة؛ لم تطر لأنها أدركت أن صوت رفرفة جناحيها قد يكون شديد الارتفاع، واختبأت تحت الفراش.

ثم سعلت، وبدا صوتها بالضبط كصوت الدكتور دوليتل؛ فقد كان بمقدورها تقليد صوت أي شخص.

استيقظ الملك وصاح: «أهذا أنت يا عزيزتي؟» ظانًا أن زوجته قد عادت من الحفل الراقص.

سعلت بولينيزيا مجددًا.

فنهض الملك من رقدته وجلس منتصبًا على فراشه ثم قال: «من هذا؟»

فقالت بولينيزيا وقد بدا صوتها بالضبط كصوت الدكتور دوليتل: «أنا الدكتور دوليتل.»

فسأل الملك: «ما الذي تفعله في حجرة نومي.» وتفقد أرجاء الغرفة، لكنه لم يستطع أن يرى شيئًا في الظلام، فقال: «لقد أمرت بحبسك! كيف تجرؤ على الفرار! أين أنت؟ أنا لا أراك.»

ضحكت بولينيزيا ضحكة بطيئة لطيفة خفيضة الصوت كضحكة الدكتور دوليتل.

فصاح الملك: «توقف عن الضحك. تعال هنا فورًا لأراك.» كان القلق قد بدأ يتسلل إلى نفسه.

قالت بولينيزيا محاولة أن ترفع صوتها قدر الإمكان: «أيها الملك الأحمق، هل نسيت أنك تحدث الطبيب العظيم دوليتل؟ بالطبع لن تراني، فقد جعلت نفسي غير مرئي. ليس هناك ما أعجز عن فعله.»

فصاح الملك: «لم أنت هنا؟»

فقالت بولينيزيا: «جئت لأحذرك، إن لم تطلق سراحي أنا وحيواناتي، فسأبتلي أرضك بمرض، فأنا قادر بلا شك على إصابة الناس بالمرض، تمامًا كما أنا قادر على شفائهم.»

لم يسر بولينيزيا أن تكذب، لكنها لم تدر ما الذي عساها أن تفعله غير ذلك. لم تجد بدًّا من خداع الملك.

فصاح الملك: «ما كنت لتفعل شيئًا كهذا، هل يمكن أن تفعل هذا حقًّا؟»

قالت بولينيزيا: «أخشى هذا. يجب أن تطلق سراحنا جميعًا، وتسمح لنا بالمرور عبر أرضك. تذكر يا جلالة الملك، إياك أن تفقدني صبري.»

بدأ الملك يرتعد، وقفز من فراشه ثم صاح: «ستُنفذ مشيئتك أيها الطبيب. سأعالج الأمر فورًا.» ثم هرع خارجًا من باب غرفته ليحدث الحراس.

زحفت بولينيزيا خلسة من تحت الفراش ما إن غادر الملك الغرفة وطارت مسرعة هابطة درج القصر وغادرته عبر نافذة المطبخ.

لكن لسوء الحظ كانت الملكة عائدة إلى القصر في الوقت نفسه ورأت بولينيزيا وهي تتسلل خلسة من النافذة. حسبت هذا أمرًا غريبًا، فلما عادت إلى حجرة نومها، أخبرها الملك عن زائره الغامض، فأدركت على الفور حقيقة ما حدث.

وقالت له: «يا لك من أحمق! لم يكن هذا الطبيب، بل ببغاؤه. لقد رأيتها تغادر من نافذة المطبخ. لقد خدعتك!»

استشاط الملك غضبًا وهرع إلى السجن، لكن كان الأوان قد فات على ذلك؛ إذ كان الحراس قد فتحوا باب الزنزانة بالفعل، ورحل عنها الطبيب والحيوانات.

الفصل السابع

جسر القرود

غضب الملك غضبًا شديدًا! وجافاه النوم طوال الليل، ودار في أرجاء غرفته في سخط ملوحًا بقبضته.

قال: «كيف يجرءون على خداعي هكذا! لا يستطيع أحد أن يعاملني بهذه الطريقة! أنا الملك!» واتهم الجميع بالحمق، وألقى فرشاة أسنانه على قطة القصر.

لم تر الملكة زوجها غاضبًا إلى هذا الحد من قبل، لكنها أدركت أنه يشعر بالحرج، فمن الصعب أن يقر بأن ببغاء خدعه.

أرسل الملك جميع حراسه إلى الأدغال للقبض على الدكتور دوليتل، ثم أرسل أيضًا جميع طاقم القصر؛ من الطهاة والخادمات ومدبرات المنزل، وحتى الملكة أرسلها في إحدى مجموعات البحث عن الدكتور دوليتل.

في الوقت نفسه، كان الدكتور دوليتل وحيواناته يندفعون بين الأدغال، فقد فطنوا إلى أن عليهم بلوغ القرود المريضة في أقصر وقت ممكن، وتوقعوا أن يكتشف الملك في نهاية الأمر خدعتهم ويرسل في إثرهم حراسه، لكنهم لسوء الحظ لم يعوا السرعة التي كُشف بها أمرهم.

كانت ساقا جاب جاب الخنزير قصيرتين، فشعر في غضون وقت قصير جدًّا بالتعب، فحمله الطبيب. وهذا جعل رحلتهم أصعب، واضطروا أيضًا إلى جر الصندوق المليء بالأدوية معهم.

حسب الملك أن العثور على الدكتور دوليتل وأصدقائه سيكون سهلًا، ورأى أنهم سيضلون طريقهم بسهولة في الأدغال، غير أنه كان مخطئًا. كان القرد تشي تشي على دراية بدروب تلك الأرض، من ثم ساعد الطبيب وسائر الحيوانات في الإسراع، إذ كان يعلم السبل المختصرة التي تؤدي إلى أرض القرود.

أيضًا كان تشي تشي وبولينيزيا على دراية بكل أنواع الفاكهة التي تنبتها الأدغال، الأمر الذي أجدى نفعًا كبيرًا. وقد علما أين يمكن العثور على الماء، إذ إن الطبيب والحيوانات اضطروا للسفر لعدة أيام، ووجدا للطبيب والحيوانات التين والبلح وجوز الهند، وعلما كيف يصنعان شرابًا لذيذًا من البرتقال والعسل.

نام الطبيب والحيوانات ليلًا في خيمة من سعف النخيل، وصنعوا أسرة سميكة لينة مريحة جدًّا من العشب المجفف، وناموا جميعًا نومًا هانئًا.

كان الارتياح بعد كل هذا السير جيدًا. أشعل الدكتور دوليتل نارًا باستخدام فروع الأشجار وأوراقها، وجلس هو والحيوانات بعد العشاء في دائرة حول النيران، ينشدون الأغاني، وروى تشي تشي أحيانًا القصص عن الأدغال.

كان القرد يعرف الكثير من القصص، ولأن القردة لا تملك كتب تاريخ ولا تُدون ما يذكرها بجميع حكاياتها، تحافظ على قصصها بروايتها مرارًا وتكرارًا. تعلم تشي تشي كل القصص التي يرويها من والديه، وهما تعلماها من والديهما. وبذا لم يضع تاريخ وقَصَص القرود.

عاد بعض هذه القصص إلى زمن شديد القدم. كان لدى تشي تشي قصص تعود إلى عصور كان الإنسان فيها لا يزال يسكن الكهوف ويرتدي جلود الحيوانات؛ كان هذا قبل أن يعرف الإنسان النار. حكى تشي تشي أيضًا للحيوانات عن حيوانات الماموث الضخمة التي كانت تأكل بتأن أوراق قمم الأشجار، وعن السحالي التي امتلكت ذيولًا طويلة بطول القطارات، وأسهب في الحديث أحيانًا إلى أن خمدت النيران ولم تعد إلا رمادًا. عندئذ كانوا جميعًا يضطرون إلى التجول في المكان بسرعة بحثًا عن المزيد من العصي لإشعال نار جديدة.

بعد الليلة الأولى من البحث في الأدغال، عاد حراس الملك وطاقمه إلى القصر وغضب الملك لأنهم لم يعودوا بالسجناء، فأمرهم بالعودة من حيث أتوا، وقال: «لا تعودوا إلا بعد أن تقبضوا على الطبيب!»

بعبارة أخرى، في الوقت الذي شق فيه الدكتور دوليتل والحيوانات طريقهم وسط الأدغال، حاسبين أنهم قد نأوا بأنفسهم عن الخطر، كان هناك من يتبعهم. لو علم تشي تشي بهذا، لحرص أكثر على أن يتخفوا.

تسلق تشي تشي يومًا ما قمة إحدى الأشجار، وتأمل اليابسة الممتدة أمامهم، ثم هبط الشجرة في حماس وقال: «لقد اقتربنا من أرض القردة، سنبلغها قريبًا.»

بعد مرور ساعة أو اثنتين، فاجأتهم مجموعة من القرود، أحدهم كان ابن عم تشي تشي. كانت مجموعة القردة تجلس على الأشجار بالقرب من حافة مستنقع في انتظارهم، فلما رأوا الدكتور دوليتل يدنو أخذوا يصيحون ويلوحون بأوراق الأشجار ويقفزون.

وأحاط الكثير منهم بالطبيب والحيوانات، وأخذوا حقيبة الدكتور دوليتل وصندوقه، بل وساعدوا أيضًا في حمل جاب جاب، وركض بعضهم متقدمًا الآخرين ليخبر سائر القردة بأن الدكتور دوليتل قد وصل.

لكن رجال الملك كانوا إلى تلك اللحظة يتبعون الطبيب والحيوانات، ولما سمعوا القردة تهلل عرفوا أن الطبيب والحيوانات قريبون، فسارعوا بالاتجاه نحو مصدر الضوضاء للقبض على الطبيب وحيواناته كي يعودوا جميعًا إلى بيوتهم.

كان القرد الذي تطوع لحمل جاب جاب يسير ببطء وتثاقل في أثر الآخرين وهم يتجهون نحو قرية القرود. تنامت إلى سمعه ضوضاء، فالتفت، فأبصر قائد حرس الملك وهو يتسلل خلسة بين الأشجار، فعجل السير ليدرك الطبيب.

أبصر قائد الحرس القرد وهو يسرع في سيره، فأخذ هو بدوره يركض، وتبعه جميع الحراس. ركضوا بسرعة وبلا توقف كما لم يركضوا من قبل موقنين بأنهم قد أوشكوا على القبض على الدكتور دوليتل وأصدقائه.

كان الجميع يركض! الدكتور دوليتل، وحيواناته، والقرود وحراس الملك. إلا أن الطبيب المسكين لم يعتد القيام بمثل هذا الجهد، فانزلق ووقع أرضًا في الطين، وأبصره قائد الحرس، فأيقن أنه سيمسك بالطبيب أخيرًا.

لكن في اللحظة نفسها، وقع القائد بدوره، إذ لم يلحظ قردين كانا بانتظاره؛ وضعا عصا امتدت بعرض الطريق ليتعثر بها القائد. وما إن وقع ركضت القردة مبتعدة بسرعة. منح هذا الطبيب بعض الوقت للنهوض، فركض قُدمًا بسرعة خلف القردة.

صاح تشي تشي للجميع: «لا تقلقوا. أوشكنا على الوصول.» لكن كانت هناك عقبة أخرى؛ انتهت أرض الملك عند جرف شديد الانحدار، يجري تحته على عمق كبير نهر؛ وعلى الناحية الأخرى منه جرف آخر شديد الانحدار تقع عليه أرض القردة.

تطلع جيب إلى أرض القردة على الناحية الأخرى من تلك الهوة ثم قال: «يا للهول! كيف سنعبر؟ سيأتي حراس الملك في أي لحظة.»

أوقع القرد الكبير الخنزير جاب جاب الذي كان يحمله، وصاح: «بسرعة! جسر! علينا أن نصنع جسرًا!»

تلفت الطبيب حوله وتساءل ما الذي سيستخدمونه لصنع الجسر. كان هناك عدد قليل من قطع الخشب حولهم، لكنه لا يكفي لصنع جسر، فنظر إلى الأدغال متسائلًا ما الذي فاتته ملاحظته، فلما عاود الالتفات إلى الهوة، وجد القرود قد صنعوا بالفعل جسرًا؛ جسرًا من أجسامهم هم! تشابكت أيديهم وأرجلهم ومددوا أجسادهم عبر الهوة التي تفصل بين أرض الملك وأرض القرود.

وصاحوا للطبيب بأن عليه العبور قائلين: «مروا! بسرعة! مروا جميعًا!»

كان الدكتور دوليتل هو آخر من عبر، وفي اللحظة نفسها التي عبر فيها إلى الناحية الأخرى من الجسر، بلغ رجال الملك الجرف، فلوحوا بقبضتهم، وصرخوا بغضب لما أدركوا أنهم أتوا بعد فوات الأوان. وبلغ الطبيب والحيوانات أرض القرود بسلام، وجذبت القردة بعضها بعضًا إلى الناحية الأخرى من الجسر.

قال تشي تشي: «يجب أن تعلم يا حضرة الطبيب أن الكثير من المستكشفين والعلماء مكثوا خلسة بين الشجيرات آملين أن يروا هذا الجسر، لكننا لم نسمح لأحد من البشر أن يطَّلع على هذه الحيلة. أنت أول من يرى جسر القردة.» فقال الدكتور دوليتل إنه شديد السرور بذلك.

كان الدكتور دوليتل يود الاسترخاء بعدما بلغ الجميع بسلام أرض القرود، لكن لم يكن هناك وقت لذلك، فبدأ على الفور في مساعدة القردة المريضة.

الفصل الثامن

زعيم السباع

أول مهمة باشرها الدكتور دوليتل هي فصل القردة المريضة عن القردة غير المريضة، ثم طلب من تشي تشي وابن عمه أن يبنيا كوخًا من القش، وجلب إليه كل القردة غير المصابة بالمرض وحقنها في ذراعها بإبرة حقن تمتلئ بالأدوية. تخوفت القردة في البداية من إبرة الحقن، لكنها بعدئذ أدركت أنها ستمنعها من الإصابة بالمرض الذي يصيب القرود، فأتت من كل التلال والوديان المحيطة بأرض القردة، واستغرق تطعيم كل القردة ثلاثة أيام كاملة.

بنى تشي تشي وابن عمه أيضًا بيتًا آخر، حوى الكثير من الأسِرة، أودع فيه الطبيب القِردة المريضة.

لكن عدد القِردة المريضة كان كبيرًا، ولم يكن هناك عدد كاف من القردة غير المصابة للعناية بهم، فأرسل الدكتور دوليتل في الأدغال داعيًا الحيوانات الأخرى أن تأتي للمساعدة، فأتت الفهود والظباء والزرافات لذلك.

لكن الحال اختلفت مع السباع، فزعيمها كان شديد الأنفة، أتى إلى كوخ القِردة المريضة ليحادث الطبيب.

فسأله: «هل تتوقع مني حقًّا أن أساعد القردة. أنا ملك السباع، وملك جميع الضواري! ليس لدي وقت أضيعه مع قِردة مريضة!»

كان صوته مخيفًا، فحاول الدكتور دوليتل قدر استطاعته ألا يبدو عليه الخوف وقال له: «أصغ إلي. قد يأتي يوم تمرض فيه السباع، إن لم تساعد القردة الآن فقد لا تجد السباع من يساعدها عندما تحتاج إلى المساعدة.»

فصاح زعيم السباع قائلًا: «السباع لا تواجه المشاكل قط، إنها تصنعها فقط.» وسار عائدًا إلى الغابة حاسبًا نفسه شديد الذكاء والدهاء.

وعندما سمعت الفهود بأمر السباع، غادرت هي أيضًا. ثم قالت الظباء إنها لا تعلم شيئًا عن العناية بالقرود، إذ منعها خجلها الشديد من الحديث كالأسد، ونبشت الأرض بحوافرها ولم تنظر حتى إلى الدكتور دوليتل في عينيه وهي تخبره بهذا.

شعر الدكتور دوليتل بقلق بالغ. كيف سيعنى بجميع القِردة المريضة دون مساعدة الحيوانات الأخرى؟

لما عاد زعيم السباع إلى عرينه، هرعت زوجته لمقابلته إذ كانت في شدة الانزعاج.

قالت: «أحد الأشبال يرفض تناول الطعام. لا أدري ما الذي يجب علي فعله! لم يأكل شيئًا منذ مساء البارحة.» ثم أخذت في البكاء.

دخل زعيم السباع عرينه ليتفقد حال صغيره، فركض أحد صغاره للقائه بفرح ولهفة كعادته. أما الشبل الآخر، فلم يبد أنه بحال جيدة، بل تمدد في فراشه ولم يبتسم إلا ابتسامة واهنة لأبيه، فطبع زعيم السباع قبلة على جبين كل من شبليه.

أخبر زعيم السباع زوجته التي انتظرته خارج العرين عن لقائه بالدكتور دوليتل قائلًا: «لقد أراد منا أن نعنى بالقِردة المريضة. بالقِردة! فقلت له إن السباع لا يمكن أبدًا أن تفعل شيئًا كهذا.»

فقالت زوجته: «ماذا قلت؟!» ثم أردفت غاضبة: «لم قلت هذا؟!»

صُدم زعيم السباع من ردة فعل زوجته، فجلس بهدوء يصغي إليها.

فتابعت الزوجة كلامها قائلة: «كل الحيوانات تتحدث عن هذا الرجل الرائع، وتقول إن بإمكانه شفاء جميع الأمراض، وهو جم اللطف. إنه البشري الوحيد في العالم كله الذي يستطيع أن يتحدث لغة الحيوانات، وها أنت تسيء إليه في الوقت الذي مرض فيه أحد صغارنا!»

فتلعثم زعيم السباع قائلًا: «لكن ... لكن ... يا عزيزتي.»

فصاحت فيه قائلة: «عد إلى الطبيب الآن! واعتذر إليه، واصحب معك جميع السباع وسائر الحيوانات كلها، وافعل كل ما يطلبه الطبيب منك. إن حالفنا الحظ، فسيأتي لاحقًا لتفقد حال صغيرنا المريض.»

فعاد السبع إلى الدكتور دوليتل، وقال: «صادف أنني مارٌّ بهذا الطريق، لقد ارتأيت أن أزورك زيارة سريعة. هل وجدت من يساعدك؟»

فقال الدكتور دوليتل: «لا. لم أجد، وأشعر بقلق بالغ.»

فقال السبع: «هذا مؤسف جدًّا.» وحاول ألا يبدو عليه الحرج، ثم أردف قائلًا: «بما إنك تواجه صعوبة إلى هذا الحد، أظن أن بإمكاني أن أقدم لك بعض المساعدة.»

فقال الدكتور دوليتل: «أشكرك. كم هذا لطيف منك!»

فقال السبع: «لقد أمرت الفهود بالعودة، وستضطلع الظباء أيضًا بنصيبها من العمل.»

فقال الدكتور دوليتل: «هذا حقًّا لطيف منك. سنباشر العمل على الفور!»

فقال الأسد: «آه، ثمة شيء آخر. لدينا شبل مريض. أنا واثق من أن الأمر هين، لكن زوجتي تشعر بالقلق، لعل بإمكانك أن تعرج علينا عندما ينتهي عملك هنا.»

فقال الدكتور دوليتل: «بالطبع، بالطبع. في أقرب وقت ممكن.» وشعر بسعادة بالغة، فقد لاح أخيرًا أمل في شفاء القردة.

وعادت جميع حيوانات الأدغال لمساعدة الدكتور دوليتل، وكان عددها في الواقع كبيرًا جدًّا حتى إن الطبيب اضطر إلى صرف بعضها، وشُفي نصف القردة المريضة بعد الأسبوع الأول، وبنهاية الأسبوع الثاني شُفيت جميعًا.

انتهت مهمة الدكتور دوليتل. وكان بعدها يشعر بالتعب الشديد، فخلد إلى النوم، ونام ثلاثة أيام لم يتقلب فيها من فرط التعب.